

المنشآت الدينية المرباطية بمدينة ندرومة:

المسجد الجامع

الدكتور/عبدالعزیز لعرج

قسم الآثار - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر

ملخص الدراسة:

يدور مضمون البحث على مدينة ندرومة في مصطلحها وسكانها وفي تطورها التاريخي والعمراني وذلك من خلال النصوص التاريخية القديمة والحديثة . ويشير إلى المنشآت المرباطية بالمدينة ويركز على مسجدها الجامع فيستعرض تاريخه وتشخيص جوانبه المعمارية والفنية ويأتي على مظاهره وخصائصه والمؤثرات التي خضع لها، وذلك من خلال دراسة تحليلية بينت مكانة مدينة ندرومة وأهميتها من خلال جامعها الكبير.

Resumé :

Cette étude à pour objet la ville de Nédroma en son terme, sa population, et son évolution historique et urbanistique d'après les textes historiques anciens et modernes .

L'étude cite aussi les monuments Almoravides de la ville et notamment la grande mosquée dans son histoire, sa description, son analyse architecturale et artistique .

مدينة ندرومة قبل العصر المرابطي..

إن معرفتنا بمدينة ندرومة قبل القرن 5-6هـ / 11-12م في مجال الدراسة الأثرية بصفة خاصة مازال يحيطها الغموض. فنحن لانعرف شيئا عن تأسيس المدينة على سبيل المثال، كما أننا نجهل مصدر اسمها وتطورها العمراني. فإن ما يورده حول اسمها حسن الوزان الفاسي⁽¹⁾ غير سليم لقوله بأنها من تأسيس الرومان، وأنهم اختاروا لها موقعا مائلا وتصميما مشابها لمدينة روما، وأن اسمها مشتق من كلمة (ند) في لغة الأفارقة (اللغة العربية) والتي لها نفس المدلول في كلمة "سيميليس" اللاتينية التي تعني "مثيل" أو "شبيه". والمعروف أن الدراسة الأثرية للمدينة والمنطقة لم تصل إلى أي نتيجة يحتمل معها أن تكون ندرومة مدينة رومانية، فغياب الشواهد المادية لأي أثر للرومان بالمنطقة والمدينة يجعلنا نشك في قول حسن الوزان ويتأكد لدينا أنها مدينة أحدث من العهد الروماني. ويحاول باسي⁽²⁾ من جهته أن يجد للتسمية والمدينة صلة بما أورده اليعقوبي في كتابه البلدان عن مدينة أسماها "فلوسن" تسكنها مجموعة من قبائل البربر، ويرى أن هذه التسمية مشتقة من اسم لقبيلة، غير أن باسي اعتمد على التصور وربط العلاقة بين الإسماء ومشتقات أخرى غير صريحة في مجملها.

إن اسم المدينة "ندرومة" يورده البكري لأول مرة في القرن 5هـ / 11م وبصيغة صريحة، وهو لا يتحدث عن مدينة حديثة إنما عن مدينة ذات أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية والعمرانية، فهي أي "ندرومة" في طرف جبل تاجرا وغربها وشماليها بسايط طيبة ومزارع، وبينها وبين البحر عشرة أميال، وساحلها (مرساها) وادي ماسين (أي يشكله وادي ماسين) وهو نهر كثير الثمار، وله مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك به، إذا سرق أحد فيه أو أتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته⁽³⁾ ثم يضيف البكري: "ومدينة ندرومة مسورة جليلة لها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار"⁽⁴⁾. فالبكري يشير إلى مدينة مهمة محاطة بسور ولها مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط لحراسة المدينة من أي هجوم يجري مباغت، وإشارة البكري إلى أن هذا الرباط يتبرك به يوحى إلى أن وظيفته العسكرية قد تقلصت إن لم تكن قد تحولت عن غايتها وهي ظاهرة عرفها شرق وغرب العالم الإسلامي في تحول الرباطات إلى أماكن للعبادة والزيارة.

المعروف أن شواطئ المغرب الإسلامي في فترتها المبكرة كانت تتعرض باستمرار لهجمات متتالية من السفن البيزنطية المنطلقة من صقلية وموانئ إيطاليا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط وخاصة في الفترة قبل أوائل القرن 4هـ / 10م حيث كان

(1) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ونسب: الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ص. 13-14.

(2) Basset (U), Nedroma et les traras. pub. De l'école des lettres d'Alger, Paris 1901, pp.5-7

(3) البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، 1965، maisonneuve, paris ص. 80

(4) نفس المصدر ونفس الصفحة.

المسلمون مازالوا غير متحكمين في زمام البحر . وفي هذه الفترة المبكرة نشط المسلمون في بناء قواهم البحرية من جهة، كما نشطوا في بناء الحصون والرباطات من جهة أخرى. ومن المحتمل أن شواطئ المغرب الأوسط كانت تتعرض كثيرا لهذه الهجومات، فأقيم هذا الرباط الذي يتحدث عنه البكري، ونحن لانعرف متى ولا من أقامه ولا شكله وتصميمه المعماري، ولكن ما يمكن أن نستنتجه أنه كان يحرس المنطقة والمدينة لما لها (أي المنطقة والمدينة) من أهمية اقتصادية وبشرية من حيث عمراتها وكثافة سكانها ، ودورها الكبير في التبادل التجاري من خلال مينائها (الغزوات) المعروف قديما بنمور والذي يبعد عنها بأكثر من 20 كلم، ومن خلال مرساها " هنين " الذي لا يبعد بدوره عنها كثيرا ، وكانت تلك التجارات تتجه إضافة إلى ذلك إلى تلمسان البعيدة عنهما بحوالي 60 كلم كما كانت تتجه أيضا نحو فاس البعيدة عنهما بـ 300 كلم.

ومع أهمية المدينة سكانيا واقتصاديا فإن البكري يسكت تماما عن الإشارة إلى أي مسجد جامع للمدينة، وسكوته هذا لا يعني أنه لم يكن للمدينة مسجدا، بل بالعكس فإن إيمان الناس القوي الذي يتضح في حديثه عن تبركهم بالرباط ونزول العقوبة على المخالفين للدين، وهو إيمان غيبي يجعلنا نرجح أنه كان للمدينة مسجدا ربما اندثر فيما بعد. غير أن البكري يذكر في معرض حديثه عن مدينة ترنانا القريبة من ندرومة على بعد ثمانية أميال منها، أنها كانت مسورة ولها سوق ومسجد جامع وبساتين كثيرة " (5).

وبعد قرن تقريبا أي القرن 6هـ/ 12م يورد الإدريسي نصا عن مدينة ندرومة يتضح من خلاله أن المدينة تطورت تطورا ملحوظا من عهد البكري فهو يذكر أن " مدينة ندرومة، مدينة كبيرة عامرة أهلة ذات سور وسوق وموضعها في سند، ولها مزارع كثيرة ولها وادي يجري في شرقها، وعليها بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير " (6).

وبمقارنة نص البكري بنص الإدريسي يتضح تطورا ملفتا للإنتباه في النسيج العمراني للمدينة، فهي أهلة بالسكان وبها عمارة وسقي كثير ولها سوق، وهو ما لم يذكره البكري من قبل. غير أن الإدريسي نفسه لا يشير لوجود أي مسجد بالمدينة ولكن التطور الذي أتى على ذكره سكانيا وعمارة وزراعة يؤكد وجود مسجد أو مسجد جامع ولا يعقل أن تكون مدينة بهذه الصفة تخلو منه، وقد عُدَّ " Canal " بمدينة ندرومة في أواخر القرن 19م ثمان مساجد (7) بينما عُدَّ عدد بساتين (BASSET) أحد عشر مسجدا بالمدينة (8) وترجع

(5) نكري، حسن، ص. 80

(6) الإدريسي، المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق، مفقه محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص.

(7) Canel, Monographie de l'arrondissement de Tlemcen, gull. De la soli. D'archéo. Et de géog. d'oran, 1887, pp.76 -78

هذه المساجد لفترات مختلفة . ويبدو أن مدينة ندرومة والمدن الأخرى بالمنطقة كانت مصائرهما مرتبطة بمصير تلمسان، فقد خضعت المنطقة بأكملها إلى حكم الخوارج الصفرية ثم انتقلت إلى الأدارسة برغبة منها ابتداء من سنة 174هـ/ 790-791م. وتداول على الحكم فيها سليمان بن عبد الله، في عهد ادريس الأول ومحمد بن سليمان في عهد ادريس الثاني. وقد حاول الفاطميون بعد الأدارسة حكم المنطقة، غير أنهم اصطدموا بأموي قرطبة الذين سيطروا على المغرب: الأوسط الشرقي والأقصى بمساعدة قبيلة زناتة وبعض زعماء مغراوة، فلم يحققوا نجاحا كبيرا بالمنطقة⁽⁹⁾

ويبدو أن ندرومة وضواحيها كان يلحقها ما كان يلحق تلمسان من الغزو والاستيلاء، فقد كان الحماديون في حربهم مع زناتة المغريين الأوسط والأقصى يصلون إلى فاس مستولين على المدن المهمة في طريقهم، وقد حدث ذلك بصفة خاصة في عهد بلكين بن محمد بن حماد، وعهد الناصر بن علناس وابنه المنصور⁽¹⁰⁾. وكانت تلمسان خلال ذلك قاعدتهم في المغرب الأوسط الغربي، ومدينة ندرومة من مدن نواحيها الهامة لمكانتها الفلاحية والتجارية.

وفي عام 472هـ/ 1080م سير يوسف بن تاشفين قائده مزدي التلكاتسي في لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان ونواحيها فدخلوها وقتلوا ابن أميرها وحاكمها آنذاك وهو العباس بن بخي، وفي العام التالي 473هـ/ 1080م قام يوسف بن تاشفين بنفسه على رأس الجيش المرابطي فأعاد فتح تلمسان وعقد عليها لمحمد بن تينعمر المسوفي، ثم استولى على النواحي مثل مدينة تنس ووهران وجبل ونشريس حتى جزائر بني مزغنه وانكفأ راجعا إلى المغرب وكان ذلك سنة 475هـ/ 1073⁽¹¹⁾. والواقع أن المرابطين لم يدخلوا في صراع طويل مع الحماديين بعد وصولهم إلى جزائر بني مزغنه وتهددهم مدينة أشير الحمادية خصوصا بعد انبثاء الأمير الحمادي المنصور لهم في شوال سنة 496هـ/ 1102م وهزمتهم لهم في معركة تلمسان بتحالفه مع زناته والقبائل العربية، فتوقفوا في زحفهم عند جزائر بني مزغنه، وانقسم المغرب الأوسط بذلك إلى قسمين: شرقي يحكمه الحماديون وغربي للمرابطين⁽¹²⁾.

ومن المرجح أن مدينة ندرومة دخلت تحت الحكم المرابطي في هذه الفترة، وأن يوسف بن تاشفين قام ببناء مسجدها الكبير بإشراف قاضيه على سبتة أبو محمد عبد الله بن سعيد الذي تشير إليه لوحة منبر الجامع المحفوظة حاليا بالمتحف الوطني للآثار القديمة والفنون

(8) . Basset (R), Nédroma et les Iraras, p. 20 – 27 .

(9) رشيد بورويبة، تاريخ الجزائر السياسي في عهد الفاطميين، تعريب د. محمد بلقراق، في الجزائر في التاريخ، جـ3،

العصر الإسلامي، الجزائر 1984، ص. 151، 155-157

(10) ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر، جـ6، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983، ص. 715

(11) نفس المصدر، ص. 381

(12) د. عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص. 715،

الإسلامية. كما نرجح أن مدينة ندرومة لم تكن خالية من المساجد قبل العصر المرابطي ولكنها اندثرت ولم يبق منها غير مسجد الكبر الذي بناه يوسف بن تاشفين .

منشآت المرابطين في الجزائر .

كان الصراع مستحكما بين المرابطين والحماديين منذ ظهور هؤلاء الآخرين على مسرح الأحداث في المغرب، كما ظل المغرب الأوسط هاجسا من هواجس الدولة المرابطية، فتذرعوا بكل العلل والأسباب للإلقاض عليه وعند استيلاء يوسف بن تاشفين على تلمسان ونواحيها جعلها ثغرا من ثغور مملكته ⁽¹³⁾ يمتد منه إلى الشرق على حساب الحماديين .

وقد استعمل المرابطون في تحقيق مآربهم بالمغرب الأوسط بعض زعماء قبائل زناتة وواليهم على تلمسان مثل مانوخ زعيم بني ومانوا الزناقي ومحمد بن تينعمر والي تلمسان، غير أن قوة الحماديين وشوكتهم ونفوذهم وسط قبائل زناتة والقبائل العربية حال دون تحقيق مطامح يوسف بن تاشفين وأوقفه عند حدّه، بل وصل به الأمر إلى طلب الصلح من المنصور الحمادي الذي هاجم تلمسان باعتبارها المنفذ الذي يدخل منه المرابطون للدولة الحمادية وكثيرا ما كان هؤلاء يوعزون لحاكمها بالتوغل في أراضيها ⁽¹⁴⁾ .

حين نزل يوسف بن تاشفين بتلمسان، جعلها ثغرا له كما ذكرنا وبني فيها مدينة جديدة غربي أغادير، وهي مدينة تاكرات التي تعني المحلة ⁽¹⁵⁾ كما بنى بنفس المدينة مسجدا جامعاً، هو الجامع الكبير بتلمسان الذي قام بتزيينه وزخرفته علي بن يوسف بن تاشفين ⁽¹⁶⁾ كما بنى بمدينة الجديدة قصرا هو القصر البالي ، أو القديم الذي لم يبق منه شيئا اليوم ، وأحاط ذلك كله بسور ما تزال إحدى أبوابه قائمة إلى اليوم ⁽¹⁷⁾ .

إن السور الذي تحدث عنه البكري والذي يحيط بمدينة ندرومة من المحتمل أن يكون من بقاء المرابطين الذين شيدوا بنفس المدينة مسجدا جامعاً ⁽¹⁸⁾ ما يزال قائما إلى اليوم . كما بنى المرابطون مسجدا آخر هو مسجد جزائر بني مزغنة أو الجزائر، الذي أرخ بعهد يوسف بن تاشفين بناء على كتابة كوفية تحلي واجهة المنبر وتتضمن تاريخ : 490هـ / 1096م ⁽¹⁹⁾ .

وقد شرع يوسف بن تاشفين في تخطيط مدينة مستغانم فبنى برجاً دفاعياً حصينا يعرف شتي غانم الذي تحول إلى مستغانم وهو الحصن المعروف باسم برج ... الذي قامت حوله مدينة

ابن خلدون (عبدالرحمن)، العبر، ج6، ص. 381 (13)

(14) د. عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشرق، بيروت 1980، ص. 143

(15) ابن خلدون (عبدالرحمن)، العبر، ج6، ص. 381

(16) Bourouiba (R), L'art religieux musulman en Algérie, Alger S.N.E.D 1973, p.69-84 .

(17) 16 - IBID, p. 69

(18) L'architecture militaire de l'Algérie médiévale, O.P.U. Alger 1983, p.95 Bourouiba (R)

(19) Bourouiba (R) , L'art religieux. p. 74 .

مستغاثم⁽²⁰⁾ الحالية. هذه هي كل المنشآت المرابطية في الجزائر، أما في المغرب الأقصى فقد كان لهم دور كبير في البناء والتعمير وإقامة المدن .

الجامع الكبير بندرومة :

إن المسجد أو الجامع بالإضافة إلى دوره الديني المتمثل في إقامة الشعائر فله دور علمي وثقافي وسياسي، وبالقدر الذي يمكن أن يمثله المسجد للدولة من صيت ودعاية وحسن تقبل لدى الناس، بالقدر نفسه يمكن أن يؤدي إلى الثورة والرفض وعدم قبول دولة جائرة ظالمة . ويتأتى ذلك من لقاءات الناس ببعضهم أيام الجمع والأيام العادية ومناقشتهم لأمر دينهم وديناهم وما تمثله تلك اللقاءات وما يتخللها من مناقشات في تكوين الرأي العام للمجتمع وتشكيله . وكان الحكام يبادرون عند اعتلائهم العرش أو وصولهم إليه أو استيلائهم على مدينة أو منطقة ببناء المساجد ارضاء للناس وإظهارا للدين رغبة في تقبل الناس لهم ولمشاريعهم . ولذا بادر يوسف بن تاشفين حين استولى على المنطقة إلى تشييد الجامع الكبير بندرومة، وما كان له أن يفعل ذلك لو لم يكن لهذه المدينة أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وهي الأهمية التي أملت على الخليفة الموحي عبد المؤمن بعده اتخاذها لها قاعدة انطلاق في امتداده نحو المغرب الأوسط والأدنى.

تأريخ الجامع من خلال لوحة منبره⁽²¹⁾:

اختلفت الآراء حول تأريخ بناء جامع ندرومة، كما اختلفت عمن شيده وقد اعتمدت كل تلك الآراء على دراسة كتابة لوحة من خشب الأرز كانت جزءا من منبر جامع ندرومة وبالضبط الجزء الذي يشكل متكا لظهر الإمام بجلسته في أعلى المنبر . واللوحة على هيئة عقد نصف دائري ارتفاعها 1م وعرضها 0.72م وتتألف من 12 سطرا ، الأسطر 3 ، 11 ، 2 ممحاة تماما ولم يبق من السطر 5 و 7 إلا كلمة في الأول وكلمتين في الثاني بينما نجد بعض الكلمات ناقصة في السطر 9 و 10 .

أسلوب الكتابة : نقشت الكتابة بشكل بارز بالأسلوب الكوفي الذي تنتهي حروفه القائمة والمدات القائمة للحروف المستقلية بعناصر غير مكتملة لوريقات نباتية . وتمتاز هذه الكتابة برقة في الفن ودقة في التنفيذ، كما تمتاز بالتناسق والانسجام والتوازن بين الأسطر وما تتضمنه من كلمات وما تحتويه هذه الكلمات من أحرف . ويتشابه أسلوب رسم حروف منبر جامع

(20) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، المطبعة العربية، الجزائر 1954، ص. 351 .

(21) توجد هذه اللوحة حاليا في المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بمدينة الحرة بالجزائر العاصمة .

أنظر عنها/ بورية (رشيد)، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة ابراهيم شيوخ، س.و.ن، الجزائر

ندرومة بمثلتها في منبر جامع الجزائر الكبير والكتابات الكوفية بجامع تلمسان الكبير⁽²²⁾ . مما يوحي صدورهما كلها عن ناموس واحد أو طراز واحد.

مضمون الكتابة : تتضمن الكتابة ماييلي⁽²³⁾ :

- كتابة المحيط: وهي عبارة عن البسملة والصلاة والتسليم والشهادة وبداية الآية 19 من سورة آل عمران .
- السطر 1 ، 2 و 3 محي يتضمن الآية 85 من السورة السابقة .
- في السطر 4 إلى السطر 7 تتضمن عبارات اليمن وألقاب المنعم واسمه وكثير من ذلك محذوف .
- الأسطر 8 ، 9 ، 10 عبارات تمثل الفراغ من البناء والمشرف عليه وتاريخ البناء، وهو ناقص .

التأريخ :

يرجح (باسي) التأريخ بحوالي 474هـ / 1081م، وهي الفترة التي استولى فيها يوسف ابن تاشفين على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط⁽²⁴⁾ ، بينما يرى جورج مارسي⁽²⁵⁾ أن المؤسس هو أحد أبناء يوسف بن تاشفين الذين لم يحكموا كالعزيز الذي ينطبق عليه اللقب، ويؤيد الأستاذ بورويبة باسي فيما ذهب إليه من أن المؤسس هو يوسف بن تاشفين اعتمادا على الألقاب وبعض الحروف الباقية⁽²⁶⁾ ، وهو ما يتضح في النص التالي:

1 - الشريط الدائري : ...حمن الرحيم وصلى الله... وآله الطيبين وسلم تسليما لا إله إلا الله محمد رسول الله (إن الدين عند الله) ...

كتابة الوسط:

- 2 - ومن يبتغ غير
- 3 - الإسلام دينا فلن يقبل منه
- 3 - ...
- 4 - هذا مما أنعم به الأمير السيد
- 5 - ... يو ...

(22) Bourouiba (R) , L'art religieux ,fig. 41

(23) ibid, p.88 , Basset @, op.cit, pp. 22 - 23

(24) ibid, p. 22 .

(25) بورويبة (رشيد)، الكتابات الأثرية، ص. 54 وهو يعرض في ذلك رأي جورج مارسيه، أنظر أيضا استعراض هذا

الرأي من طرف : Golvin (L), Essai sur l'architecture religieuse Musulmane, T.4 Paris

1979, p.171.

(26) بورويبة (رشيد)، الكتابات الأثرية ، ص. 54 .

6 - سف بن آاشفن أآام الله آوفقه

7 - وأآزل ... كان ...

8 - الفراع منه على فآف الفقه القاضف

9 - ... بو مآم آبالله ... فوم

10 - آلمفس السابآ عشر من شهر ...

ومهما فكن فلان نسبة المسآء إلى العصر المرابطف شفع آؤكآه الءراسه المعمارفه المقارنه للمسآءفن المرابطفن فف الآزائر وآلمسان كما سوف نرى .

آآآآآآآآ آف آؤآلآ على الآامآ : آعرض آامآ نآرومة إلى العآفء من الإصلآآآ وآآآآآآآآ آبر العصور المآآآلفه؁ بعضها مسآل آآافا كماآآآة المضافه فف العآء الزفانف عام 479هـ / 1349م⁽²⁷⁾ والبعض الآآر منها آبر مسآل كبعض الءعامآ فف البائكة المنآرطف الآنوفبة الغربفة؁ وكذلك الآزء الؤف فلف الصآن مباسرة من الناففة الشمالفة بالإضافه إلى المآراب الؤف آلفف هو بآوره آآآفآا واضآا ولكننا نآء بصفة عامه أن الآآطفط المعمارف للمسآء ما فزال فآآفظ بآوره المرابطف⁽²⁸⁾ . كما نآء مسافه مربعه آلف المآراب مشكلة بثلاآه عآوء وفآآه المآراب؁ ورفآآ أن هآه المسافه كانت آعلوها قبة فف العصر المرابطف ثم أزلآ بعء ذلآ .

الوصف المعمارف للمسآء : فشفبه الآامآ الكبفر بنآرومة المسآء الكبفر بالآزائر وذلآ من آفآ الآصمفم المعمارف العام؁ وهو آصمفم فآآلف من مسآطفل فآآ من الشرق إلى الغرب كماآامآ الأموف بدمشق وآامآ القروفن بفاس؁ ففنا نآء معظم المسآء الإسلامفة فف المشرق والمغرب على السواء على هفئة مربع أو مسآطفل فآآ من الشمال إلى الآنوب . وقد أؤى هآا الآصمفم العام إلى أن فكون عرض المسآء أكثر من عمقه ومقاسآته العامة 28.30م × 20م . وفآآلف المسآء من الءآآل من صآن أوسط مكشوف مقاسآته 9م × 6.80م آآط به أربع أروقة أكبرها رواق القبلة أو بف الصلاة وعلى الآانبفن رواقفن مآمآلفن .

1 - رواق القبلة : (آماسف) بارز من الآارج إلى الفمفن منه فآآ آآرة مسآطفلة للمنفرف وهو مسآطفل فآآ من الشرق إلى الغرب وعرضه أكثر من عمقه ومقاسآته 28.30م × 9.70م؁ وفآآلف من ثلاثة أساكفب وأآء عشر بلاطة عموؤفة على آآار القبلة وهو آآار سمكه 1.70م؁ فآوسطه مآراب آائر مآعآء الأضلاع وإلى الفسار على البلاطة الآانفة من المآراب غرفة أخرى اسآعملآ كمآبفة واستراآة للإمام وفلفها على البلاطة ما قبل الآآفرة باب فوصل إلى الآارج.

(27) Golvin (L) , op.cit, p.171 .

(28) Golvin (L), ibid, pp. 173 - 174 , Bourouiba (R) , L'art religieux, pp. 78 - 79 .

ويقدر عرض الأساكيب ب 2.40م إلى 2.50م بينما عرض البلاطات يقدر ب 2.45 م فيما عدا البلاطة المركزية التي يزيد عرضها عن بقية البلاطات ، وأمام المحراب على البلاطة المركزية مساحة مشكلة بواسطة عقد أوسط وعقدين جانبيين على شكل مربع من المحتمل أنها كانت مغطاة بقبة اندثرت فيما بعد . ويشرف بيت الصلاة على الصحن بثلاثة عقود .

2 — الرواقان الجانبيان : على جانبي الصحن الشرقي والغربي رواقين متماثلين يشرف كل منهما على الصحن بعقدين ويتألفان من ثلاث بلاطات هي امتداد لبلاطات بيت الصلاة العمودية على جدار القبلة .

3 — الرواق المقابل لرواق القبلة : وقد جدد هذا الرواق في وقت غير معروف ويشرف على الصحن بعقدين بدلا من ثلاثة عقود على غرار ما يقابله .

4 — الحوامل : يتضمن بيت الصلاة ثلاثة صفوف من الدعامات المربعة الشكل في معظمها يتكون كل صف من ثماني دعامات والثالثة من جهة الصحن ذات شكل غير منتظم بعضها متقاطع والبعض الآخر على شكل لام متوسط (—) مشرفة على الصحن من جانبيه ، بينما نجد دعامات أخرى مستطيلة الشكل وذلك في الجانب الشمالي الشرقي ومجمل الدعامات في المسجد خمسة وثلاثون دعامة .

5 — العقود : وترتكز عقود المسجد على الدعامات وهي عبارة على هيئة حذوة الفرس منكسرة قليلا في القمة .

6 — المداخل : للمسجد ثلاثة أبواب عادية تذكارية أحدها إلى يسار المحراب مقابل البلاطة ما قبل الأخيرة ، والآخر في الركن الشمالي الغربي والثالث بجانب المئذنة في الركن الشمالي الشرقي .

7 المئذنة : وتحتل الركن الشمالي من المسجد، وقد بنيت على أيدي سكان المدينة في العصر الزياني كما تشير إليه اللوحة التأسيسية المثبتة على يمين باب الدخول إليها . ويشير التأريخ إلى عام 749هـ / 1348م ، والكتابة كالتالي :

1 بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

2 - بناو(بني) هاد(هذه) الصامع(الصومعة)أهل ندرومة

3 - بأموالهم وأنفسهم وكل احتساب

4 - لله وانينات (وبنيت) في خمسين يوم(يوما)

5 - وبناها محمد بن عبدالحق بن عبد

6 - الرحمن الشيصي عام تسعة وأربعين

7 - وسبع مائة رحمة الله

8 - عليهم أجمعين وتتميز هذه المئذنة كبقية المآذن الزيانية بأنها متأثرة ومقتبسة من المآذن الموحدية قبلها وخاصة مئذنة الكتبية وذلك من حيث تكوينها وزخارفها .

الوصف الخارجي : يقدر الارتفاع الكلي للمئذنة 23.20م ، وارتفاع البرج الأول السفلي بـ 19.80م كما يقدر طول ضلع القاعدة 4.72م بينما يصل ارتفاع الجوسق إلى 4.24م وقاعدته 2.04م. ويرصع البرج السفلي من جهاته الأربعة زخارف هندسية على هيئة شبكة من المعينات والعقود المفصصة والمنكسرة، وقد قسم كل وجه من أوجهها الأربعة من الناحية الزخرفية إلى جزئين : الجزء السفلي : قوامه مساحة مربعة يزيناها عقدان مفصصان ناتان، يتكون كل منهما من تسعة فصوص، وينتهي كل عقد بمفتاح على هيئة ميم .

الجزء العلوي : وهو على هيئة مستطيل ترصعه تشبيكة من المعينات الناتئة تقوم على بائكة من ثلاثة عقود ثلاثية الفصوص ترتكز على أعمدة حائطية صغيرة. وينتهي هذا الجزء بإفريز أفقي مستطيل غائر غفل من الزخارف ويتخلل البرج السفلي فتحات مستطيلة من الخارج ومسلوبة منحرفة من الداخل تسمح بتدفق تيار الهواء بقوة ، ووظيفة هذه الفتحات الإضاءة والتهوية . الجوسق : وهو صغير الحجم ، غفل من الزخرفة ما عدا دخلة غائرة في كل وجه من أوجهه الأربعة، وهي فتحة مستطيلة تنتهي بعقد حذوي أملس عادي .

التحليل المعماري للمسجد :

يمتاز المسجد الكبير بندرومة بتشابه مع المسجد المرابطي الكبير بالجزائر (29) وذلك من حيث التخطيط العام لكل منهما، والذي يتكون من مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب بحيث يشكل عرضه أكثر من عمقه وهي نفس الميزة التي يتميز بها بيت الصلاة في كلا المسجدين (30). إن هذا التخطيط العام يختلف عن معظم المساجد الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء إذا ما استثنينا أمثلة قليلة كجامع الأموي بدمشق وجامع القرويين في فاس، غير أن هذين الأخيرين بلاطتهما موازية لجدار القبلة وليس عمودية عليه كجامع ندرومة والجزائر (31). وهما من هذه الزاوية متأثران بنظام تخطيط البلاطات في المساجد الإسلامية في المشرق والمساجد المغربية الأندلسية (32). وربما كان التأثير الأندلسي أقوى على العمارة المرابطة من أي تأثير آخر، فقد فتح المرابطون أبواب المغرب لستوغل منه التأثيرات المعمارية الأندلسية كما نراها في جامع الجزائر وتلمسان وجزينا في جامع ندرومة . والمعروف أن أبواب المغرب كانت موصدة قبلهم ولم يكن لها إلا منافذ قليلة فتحتهما الخلافة الأموية بقرطبة في سبتة وفاس، وقد أدى الارتباط السياسي بين المغرب والأندلس الذي أوجده المرابطون إلى وحدة غنية أصبحت معها الأندلس أستاذًا للمغرب وظهرت تقاليده في العمارة المرابطة في الجزائر (33) وهي المظاهر والتقاليد التي ستستند إلى وقت متأخر في المغرب

(29) Marçais (G), l'architecture Musulmane d'occident, Paris 1954, p. 192

(30) Golvin (L), op.cit, fig. 60 , 62 .

(31) Bourouiba (R) , L'art religieux Musulman , p. 75 .

(32) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية " عصر الولاية" القاهرة 1970، أشكال 6، 7، 167، 169

(33) د.عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص. 724

العربي . إن اعتماد المعمار المرابطي في إقامة العقود والأسقف على الدعامات المبنية وليس على الأعمدة المنحوتة، لا يرجع إلى ضخامة المساجد التي شيدها المرابطون كما يرى مورينو⁽³⁴⁾ فهناك مساجد قبل المرابطين أضخم من مساجدهم كالقيروان وقرطبة، والعمارة الزيرية الحمادية تعتمد على أعمدة، ولكنه يرجع إلى صعوبة الحصول على الأعمدة الرخامية التي تتطلب تكاليف ووقتا لنحتها بخلاف الدعامات المبنية التي يعتمد فيها على المواد المحلية المتوفرة بعين المكان . ويرجع أصل بداية الاعتماد على هذا النوع من الدعامات المبنية إلى العراق ، فقد بنيت أعمدة ضخمة تشبه الدعامات بالحجر في مسجد البصرة والكوفة في عهد زياد بن أبيه (45-50هـ / 665-670م) ، كما شيدت بالحجر والآجر دعامات حائطية تشبه الأعمدة في قصر والأخضر وبوابة بغداد بمدينة الرقة (155هـ / 772م) كما شيدت الدعامات بالبناء في جامع سامرا لتحمل سقفا من غير عقود وفي جامع أبي دلف بعقود تحمل سقفا⁽³⁵⁾ .

وقد انتقل هذا الطراز إلى الجامع الطولوني بمصر وانتقل إلى المغرب في القرن 3هـ / 9م إلى المسجد الكبير بسوسة ومسجد القرويين بفاس وعمم استعماله في العصر المرابطي ليستمر بعدهم في العصر الموحد⁽³⁶⁾ . إننا نجد جميع عقود المسجد الكبير بندرومة على هيئة حذوة الفرس من النوع المنكسر قليلا⁽³⁷⁾ ويعتبر العقد الحذوي بأشكاله المتنوعة علما على العمارة المغربية الأندلسية ، فقد ظل المعمار المغربي وفيها لهذا النوع من العقود وفضله على غيره منذ أن استعمل لأول مرة في جامع القيروان وجامع الزيتونة وقرطبة ومساجد سوسة (بوفتاة والجامع الكبير)⁽³⁸⁾ ويرجع أول ظهور للعقد الحذوي إلى الجامع الأموي بدمشق في الفترة الإسلامية ولكنه ظهر قبل ذلك كما يتضح من أمثلة له مؤرخة عثر عليها من معمدانية مار يعقوب بنصبين من العصر الساساني والبيزنطي بشمال الجزيرة العربية⁽³⁹⁾ . يتصدر جدار القبلة بجامع ندرومة محرابا مضلعا خماسيا، يرجح أنه محراب غير أصلي ولا يمكن دراسته على أساس أنه نموذج للمحاريب المرابطة⁽⁴⁰⁾ . ولعل من العناصر الهامة في المسجد، صحنه وهو يشبه مثيله في الجامع الكبير بالجزائر . وللصحن أهمية كبيرة في العمارة الإسلامية بصفة عامة وفي عمارة المساجد بصفة خاصة وهو الجزء غير المسقوف بداخل المسجد، ويعتبر امتداد لبيت الصلاة تؤدي فيه الصلاة أيام الجمع حين يزدحم المسجد بالمصلين ، وكانت صحون المساجد تغرس بالأشجار المثمرة أو غير المثمرة ذات (34) جوميز مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة عبد العزيز سالم وآخرون ، الهيئة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت.ص. 338 .

(35) فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص. 203 .

(36) Golvin (L), Essai sur l'architecture, T.I, Paris 1970, p.5 .

(37) Bourouiba (R) , L'art religieux Musulman, p. 78 , pl xI, I – 2 .

(38) Golvin (R) , Essai, T. I p. 85 .

(39) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص. 203 .

(40) Bourouiba (R) , L'art religieux, p.79, Golvin (L), Essai, T.4 , P. 174 . Marçais (G), L'architecture, p.192 .

الروائح الزكية للشم واستغلال الناس بها، كما كان يخصص لاستعماله للتجارة أو السمر والجلوس والنوم ثم أخذ الفقهاء في تحديد وظائفه وقد أورد ذلك كله الزركشي في كتابه "أعلام المساجد في اعلام المساجد"، فقد اعتبرت فيما بعد كأجزاء أساسية من المساجد⁽⁴¹⁾ وفي معظم الأحوال نجد الصحن محاطة بأروقة مغطاة يستظل بها المصلون من الحر والمطر .

ويختلف شكل الصحن باختلاف الأساليب المعمارية، فهناك صحن عمقها أكثر من عرضها والنموذج الأول لها جامع الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد توسيعه والنوع الثاني من الصحن عرضها أكثر من عمقها كما هو الحال في الجامع الأموي بدمشق، وقد وجد النوعان من الصحن في المغرب العربي : النوع الأول يمثل جامع القيروان، والثاني تمثله أمثلة كبيرة من صحن المساجد المرابطة بالمغرب الأوسط كالجزائر وندرومة⁽⁴²⁾ . ولعل أكثر العناصر المعمارية أهمية في المساجد، المئذنة التي تمتاز بما حوت عليه من زخارف وما تضمنته من نقوش وزينة بالإضافة إلى أنها سجل رائع لأطوار الفن الزخرفي الإسلامي في المغرب والأندلس بصفة عامة وفي الجزائر بصفة خاصة . وقد بنيت مئذنة جامع ندرومة وفقا لطراز المآذن المغربية المربع الشكل والذي ساد المغرب والأندلس منذ أول مئذنة أقيمت لأول مسجد في المغرب وهي "مئذنة جامع القيروان". وقد اشتق الشكل المربع للمئذنة الإسلامية واسمها من أبراج الزهاد في سوريا والتي ذكرهم بن جبير في حديثه عن زاهد مسلم كان يعتكف في المئذنة الغربية للجامع الأموي بدمشق. ويذكر أنه كان للجامع ثلاث صوامع واحدة في الجانب الغربي، أشبه بالبرج المشيد... الخ... وقد شاع استخدام المغاربة كلمة صومعة للتدليل على المئذنة⁽⁴³⁾ مما يوحي بالأصل المشترك لهذه المآذن مع الأبراج التي تحدث عنها ابن جبير . وقد خضعت المآذن الإسلامية بالشرق إلى تطور كبير في شكلها وتصميمها وزخارفها كالمآذن العباسية في سمرا وأبي دلف وهي مآذن مستديرة وسلمها من الخارج⁽⁴⁴⁾، وقد أثرت هذه المآذن العراقية (3هـ/9م) في مئذنة الجامع الطولوني في مصر. وقد أطلق على هذه المئذنة اسم الصومعة والمئذنة غير أن الاسم الأكثر دقة هي المئذنة لما تشير به إلى مكان المؤذن والآذان. وعلى أية حال فإن النموذج الأصلي لجميع المآذن المغربية هي مئذنة جامع القيروان التي يقدر ارتفاعها ب31.50م وضلع قاعدتها 10.67م ، وتتألف من ثلاثة طوابق مسلوقة إلى الأعلى ، ومن الداخل سلم يصعد إلى الأعلى حول نواة مركزية مربعة فيقف السلم في نهاية الطابق الثاني⁽⁴⁵⁾.

(41) سين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت يناير 1981، ص. 69 .

(42) Golvin (L), Essai, T.I, p. 46

عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، مؤسس شباب الجامعة، الاسكندرية ، د.ت. 3.

(43)

(44) Golvin (L), Essai, TI p. 47 , fig. 6 .

(45) ibid , p. 49 .